مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية و آدابها، فصلية علمية محكمة، العدد الـ٣٩، صيف ١٣٩٥ هـ.ش/ ٢٠١٦ م؛ صص ١٠٨-٨٧

ابن الوردي وموقفه من المجتمع المملوكي في الشام

مجتبى كريمي[١]، محمد خاقاني اصفهاني*[٢]، مهدى عابدي جزيني[٣]

١. طالب الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة اصفهان

٢. أستاذ فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة اصفهان

٣. أستاذ مساعد فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة اصفهان

تاريخ استلام البحث: ٩٣/٠٨/٢٤ تاريخ قبول البحث: ٩٤/٠٨/٠٩

الملخّص

إنّ ابن الوردي كان شاعر النّقد الاجتماعي وفارسه الأوّل في حلب الشّهباء على الرّغم من وجود غيره من الشّعراء الذين شاركوه في هذا الفنّ، لأنّه استطاع أن يُصوّرَ بدقّةٍ كثيراً ممّا كان في عصره وبيئته من مثالبَ وعيوبٍ ومشاكل وأن ينفعلَ بها ويتأثّر بها تأثّراً عميقاً صادقاً، وكان من نتاجه هذه، الأشعارُ الكثيرةُ التي أنشدها معبّراً عمّا يشعرُ ومحاولاً بها أن يرفعَ صوت النّقد والإصلاح لعلّه يجدُ سميعاً مجيباً. ولقد اعتمد هذا النقدُ أو الهجاءُ على سلب الفضائل وإلصاق الرّذائل بعامّة ومع ذلک، فإنّنا نلمحُ فيه الصّفة الفرديّة في هجاء بعض المهجوّين، إلاّ أنّ الفرديّة هنا ذاتُ طابعٍ جماعيٍ، بمعنى أنّ الهجاءَ لم يكن منصبّاً على ذوات المهجوّين بقدر ما هو منصبٌّ على صفاتهم السيّئة التي تضرّ المجتمع والّتي من أجلها هجاهم الشّعراءُ ونالوا منهم. تُوحي دراسةُ أشعار ابن الوردي الاجتماعية بأنّ المجتمعَ في العصر المملوكي لم يألف توازناً في شيءٍ ما، بل إنّ التوسّطَ في الأمور ينعدمُ أو يكادُ، فثمَّ إفراطٌ في الخلاعة والمجون؛ يقابلها الإفراطُ في التصوّف الذي ينحرفُ بأصحابه عن الدّين الصّحيح. عرضنا في هذا المقال بعضَ الأشعار لابن الوردي التي بثَّ فيها شكواه من ظلم الرّؤساء وما أصاب المجتمعَ من الثّورات وما خلّفه ذلک كلّه من آثار على سلوک أفراد المجتمع. لقد اعتمد البحثُ على المنهج الوصفي- التحليلي وكان ذلک بدراسة أشعار ابن الوردي وتحليل المضامين الاجتماعية فيها.

الكلمات الرئيسة: النقد الاجتماعي؛ المجتمع؛ ابن الوردي؛ الفساد.

* **الكاتب المسؤول**
mohammadkhaqani@yahoo.com

المقدمة

هناک عواملُ جذبتنا إلى دراسة الشّعر الاجتماعي في ديوان ابن الوردي، فقد استوقفنا منذ زمنٍ بعيدٍ ذلک الاسمُ الذي أطلقه بعضُ الباحثين على "العصر المملوكي" وهو (عصر الانحطاط أو الانحدار) بعد أن أشاروا إلى نتاجه الأدبي إشارةً عابرةً وأتوا ببعض الشّواهد القليلة ليبرهنوا على صحّة دعواهم ولكن من الجور على هذا العصر أن يُنعت بالانحطاط. رأينا أن نبحثَ عن أشعار ابن الوردي الاجتماعية والبيئة التي كان يعيشُ فيها الشّعراءُ حتّى نُلقي بعضَ الأضواء على عصرٍ لم يدرس الدّراسةَ الكافيةَ من عصور الأدب العربي. البيئةُ الاجتماعيةُ أرحبُ البيئات أثراً في حياة الشّعراء، لأنّهم في جملة أمورهم يعيشونَ عيشَ الجماهير ويقاسون ما تقاسيه إلّا قليلاً منهم. لذلک لابدّ أن يتأثّرَ الأديبُ بالحياة الخارجيّة السّائدة القائمة في مجتمعه وهو يستمدُّ أدبَه من حياة هذا المجتمع وهنا تأتي العبارةُ المأخوذةُ من "مادام دوستال"، الكاتبة والرّوائية الفرنسية التي تقول: «إنّ الأدبَ تعبيرٌ عن المجتمع» (هويدي، ١٩٩٨: ٩٤). يحملُ الشّعرُ عبئاً يسيراً في التّأثير على تاريخ الشّعوب والأمم وهو الكشّافُ الذي يعرضُ لنا صورة المجتمعات الإنسانية ويكشفُ بمنظوره الخاصّ تلک الإشكاليّات والتداخلات والمتغيّرات التي تلاحقُ المجتمعَ وهو مرآةٌ لحياة المجتمعات وعن طريقه نستطيعُ الاستدلالَ على أوضاع المجتمعات وأعرافها وتقاليدها وتقدّمها في جميع المجالات.

من يبحث في دواوين الشّعراء، يلمس بنفسه حضارات المجتمعات الإنسانية ومراحل رُقيّها وتطوّرها وأسباب سقوطها وتفكّكها. فالنّقدُ الاجتماعيُ سلاحٌ ذو حدّينِ في يد الشّاعر، فإمّا أن يشيرَ إلى مكامن الخلل والدّاء ويتفاعلُ مع مجتمعه بشكل إيجابي وإمّا أن يزيدَ من تعميق المأساة ويزيدَ من البكاء والنّواح وذلک عندما يرتكزُ على جانبٍ وحيدٍ من النّقد الاجتماعي وهو الجانبُ السّلبيُ والنّظر إلى المجتمع بمنظار أسود قاتم. إنّ الشّاعرَ الحقيقي كابن الوردي يسعى إلى إخراج أمّته من بعض مشاكل الحياة، لأنّ مشاعره تثورُ لمعاناة الرّعية من الظّلم أينما وقعَ. هو صاحبُ بصيرةٍ حادّةٍ تنقضُّ على المتغيّراتِ وتبرزُ الإيجابيات والسّلبيات بشكلٍ واضحٍ في المجتمع الحلبي. كان ابنُ الوردي لا يحسبُ نفسه منفصلاً عن المجتمع وما يحدثُ فيه لأنّه هو المصوّرُ لهموم النّاس ومشاكلهم على أي وجهٍ من الوجوه. نشأ ابنُ الوردي في عصرٍ ضعُفَ فيه الشّعرُ ونزلَ قدرُ

الشّاعر؛ لأنّ همَ السّلاطين انصرفت إلى الحروب والفتن والدّسائس وأغدقت الخيراتُ على المدارس أو على الملاهي وادّعى الشّعرَ كلُّ ناظمٍ ولو كان سارقاً ومُغيراً أو مُقتبساً ومُضمّناً. فطر ابنُ الوردي على الشّعر منذُ الطّفولة ولكن نشأتُه الورعةُ المتّقيةُ باعدت بينَه وبين حياة الشّعراء الماجنة اللّاهية فتأثّر شعرُه بهذه النشأة؛ فهو يقولُ في مقدمة ديوانه بعد الحمد لله والصّلاة على نبيّه محمّد خاتم رسله وعلى آله وصَحبه ومَن اقتدى بقوله وفعله: «فإنّي أُمرتُ أن أكتبَ في هذا الكتاب شيئاً من نثري ونظمي وهأنذا قد أثبت به مسطوراً يشهدُ بقصور فهمي وقد يقفُ النّاظرُ في مجموعي هذا على وصف عذار الحبيب وخدّه ونَعت قدّه وشكوى عشقه وصدّه وجيد القول ومدّه فيظنُّ لذلک بي الظّنون غافلاً عن قوله تعالى "وإنّهم يقولون ما لايفعلون" وإنّي قلتُ ذلک على وجه امتحان القريحة ومحبّه في المعاني المبتكرة الأنيقة». ندرسُ هنا أهمّ الأشعار الاجتماعية لابن الوردي حتى نصوّرَ صلتَه وعلاقته العميقة بالمجتمع والظروف السّائدة فيه. قد أعدّت هذه الدراسةُ للتعمّق والتأمّل في ديوان ابن الوردي خاصّة أشعاره الاجتماعية وعلى الرّغم من القيمة الأدبية العظيمة لديوانه فإنّه لم يحظ بعناية الدّارسين والباحثين عنايةً كاملةً ولم يظفر ببحوثٍ تُلقي الضوءَ على ابن الوردي، النّاقد الّذي آلمهُ ضياعُ مُجتمعه وانهيارُه. اعتمدنا في هذه الدّراسة على ديوان ابن الوردي والمعلومات المستلّة من المصادر التّاريخية، خاصّةً المعاصرة للشّاعر. يعتبرُ ديوانُ ابن الوردي من بين الدواوين المكتوبة في العصر المملوكي أشدّ صلةً بالمجتمع، فيه حديثٌ دقيقٌ ومفصّلٌ عن المجتمع يعكسُ موقفَ ابن الوردي من الحياة. فقد كان منهجُنا في هذا البحث وصفياً – تحليلياً ومضامين ابن الوردي الاجتماعية تنقسمُ إلى أربعة أقسامٍ؛ هي: الأحداث الطّبيعية، والمظالم، والمفاسد الاجتماعية، والعادات والتقاليد. فاختارت الدّراسةُ من كلّ قسمٍ نموذجاً للوصول إلى النتيجة الكلّية حول الأوضاع الاجتماعية السّائدة في حلب زمن المماليک.

أسئلة البحث

١. هل تكونُ أشعارُ ابن الوردي منهلاً للتعرّف على الأوضاع الاجتماعية في حلبَ؟
٢. ما موقفُ ابن الوردي من مظالم الحكّام والأمراء والقُضاة؟
٣. المعاني المستفادةُ في نقد ابن الوردي تقليديةٌ أم مبتكرةٌ؟

المفروضات

الف) صوّر ابنُ الوردي تصويراً دقيقاً للأوضاع الاجتماعية في حلب لنا فيكون ديوانُه من المناهل الهامّة للتعرّف على المجتمع الحلبي في العصر المملوكي.

ب) يعلنُ ابن الوردى الحربَ على جميع الظَّلمة، الّذين اطّلع على ظلمهم وخيانتهم ولا يستثني أيَّ طائفةٍ منهم، فهو في سبيل مصلحة العامّة، لا يميزُ بين قاضٍ استغلَّ أو حاكمٍ أو فقيهٍ. وبذلَ ابنُ الوردي جهوداً حثيثةً للوصول إلى الجديد المبتكر في أشعاره الاجتماعية ولم يُوفّق إلّا في ابتكاره للمعاني الجزئيّة.

سابقة البحث

في ما يتعلّقُ بموضوع البحث لم نجد دراسةً مستقلةً بهذا العنوان، لكن هناک دراساتٌ ذاتُ صلةٍ بالموضوع، منها ما يتعلّقُ بحياة ابن الوردي وشعره. أمّا فيما يتعلّقُ بحياة ابن الوردي الأدبية وشعره فتحدّثَ صلاح الدين الزملكاني في كتاب"شرح لاميّة ابن الوردي" عن لاميّته الشهيرة وشرحها شرحاً يزيلُ صعوبته وبيّن ما فيه من النّكات الأخلاقية والتربويّة قدر المستطاع. كتبَ يوسفُ البيومي مقالة "ابن الوردي؛ الشّاعر الواعظ الفقيه" وبحثَ فيها حياة الشاعر، نشأته، ثقافته وشعره. في مقالٍ آخرَ تحتَ عنوان "الحكمةُ في شعر ابن الوردي" تطرّقَ محمود آبدانان مهدي زاده إلى أسباب الحكمة، ومصادرها، وأهدافها نحو الموعظه، والنّصيحة، والمعاملة، والتّعليم والتربية والحضّ على العلم بنماذجَ شعريةٍ جميلةٍ. أشار محمود رزق سليم في مقالة "ابن الوردي والخمول" إلى أنَّ ابن الوردي ما كان خاملاً؛ فإن بَعُدَ بعضَ الأحيان ببدنهِ عن النّاس، فقد قرُبَ إليهم بفكره وتركَ لهم مذاهبَ ومبادئ عاشوا بها. درسَ أحمدُ فوزي الهيب في مقالة "الجانب البديعي في شعر ابن الوردي" منزلة ابن الوردي الأدبيّة والعلميّة، والمحسّنات المعنوية واللفظية في أشعاره وسهّل لنا الطّريقَ في دراستنا هذه. على الرّغم من كثرة الدّراسات التي بحثت في الشّعر المملوكي؛ إلاّ أنّنا لا نجدُ كتاباً أو مقالةً حيالَ مضامين ابن الوردي الاجتماعية وكما نعلمُ هو رائدُ النّقد الاجتماعي في عصره. فإذن ربّما ليسَ من الادّعاء أنَّ ما جاء فى المقال الحاضر من المضامين الاجتماعية في أشعار ابن الوردي فريدٌ في نوعه.

المضامين الاجتماعية

١) آثار الأحداث الطبيعية

كانت الأحداثُ الطبيعيةُ عاملاً من عوامل القلق والإرباك اللذينِ أصابَ بهما النّاس في العصر المملوكي ولها آثارٌ متنوّعةٌ على نواحي الحياة المختلفة: الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية والأدبية. أشار ابنُ الوردى إلى أبرز النتائج التي تمخّضت عنها الكوارثُ الطبيعيةُ في العصر المملوكي ولاسيّما على الإنسان. أثارت الكوارثُ حالةً من الخوف والفزع عند النّاس الذينَ عاصَروها؛ لذلک عَبّر ابنُ الوردي عن هذا الخوف عند التَحدّث عن كلّ مظهرٍ من مظاهر الدّمار. يعكسُ ابنُ الوردي شدّةَ الزلزلة ويستعيذُ من شَرّها؛ فهي من قوّتها لا تجعلُ النّاس ينامونَ خوفاً فتجافيهم الرّاحةُ في اللّيل والنّهار:

نعوذُ بالرّحمنِ من مثلِها زلزلةٌ أسْهرتِ الأعينا

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ١٥٠)

من مظاهر الخوف هروبُ النّاس من مساكنهم؛ حتّى لا يُصابوا بالأذى وقد صوّرَ ابنُ الوردي عن هذا المظهر في أثناء تصويره في زلزلةِ ٧٤٤ ه:

إنّا نُبذنا بالعَرا لخوفِ زلزالٍ طَما

لا ما علينا مِن ال صّحراء سِوى قَطر السَّماء

(المصدر *نفسه*: ١٥١)

رافقَ الخوفَ من الكوارث والأحداث الطبيعيّة حالةٌ نفسيّةٌ سيّئةٌ تمثّلت الشّعورَ بالحزن والألم والتشاؤم من الحياة. تغيّرت نظرةُ النّاس إلى الخير الآتي من الطّبيعة فلم تَعد الطبيعةُ تأتي بالخير والبركة، بل بالهموم، والمشاكل ومن ذلک ما قاله ابنُ الوردي في سيل دمشق:

أظمتني الدّنيا فلمّا جئتُها مُستسقياً مطرت عليَّ مصائبا

سُحبٌ بوارقُ أو ثلوجٌ خِلتُها زنجاً تبسّمَ أو قِذالاً شائبا

(*المصدر نفسه*: ١٨٥)

يعكسُ الشّاعرُ في البداية شكواه من قلّة المطر وعندما دعا اللّهَ لذلک، أمطرت السّماءُ بخيرٍ لا خيرَ فيه؛ فصوّرت الحياة في نظره سوداءَ مظلمةً، ليسَ فيها سوى بعض هذا البياض الّذي أحدثهُ الثّلجُ فيها. ضاعفت الكوارثُ الأحزانَ في قلوب النّاس ومن ذلک ما قالهُ ابنُ الوردي في الثّلج

الواقع على دمشقَ. يقول الشّاعرُ إنَّ الثلوج زادت في الحزن الّذي في قلبه فقد ترتّبَ على هذا الكمّ الكبير منها عبءٌ كبيرٌ في نفسه وجعلتهُ يفكّرُ فيما تضعُه الثّلوجُ من عراقيل:

أثلـــوجُ ضـــاعفتِ الهمـــومَ وطالمـــا كلّفتِـــني مـــا ضَـــرّني تكليفـــهُ

(*المصدر نفسه*: ١٨٤)

أثّرت الكوارثُ الطبيعيةُ في المنشآت العمرانيّة والثقافيّة التي لا تقوى على الوقوف أمامَها؛ كما يصوّرُ ابنُ الوردي كيف تأتي الزلزلةُ على القِلاع دون مانعٍ يَمنعُها وكيف تأتي على الحصون بقوّتها لتسوّيها بالأرض:

طـــارت لقلـــعِ القـــلاعِ زلزلـــةٌ مـــا خشـــيت راميـــاً ولا صـــائلْ

إذا دَرى الحصـــنُ مَـــن رمـــاهُ بهـــا خـــرَّ لـــهُ فـــي أساسِـــه ســـاجدْ

(ابن الوردى، ١٣٠٠: ١٥٢)

حظيَ تصويرُ الموت بنصيبٍ وافرٍ عند الشّعراء لِما في الموت من صدمة نفسيّة للإنسان لاسيّما في هذه المرحلة التي قاسى فيها النّاسُ كثيراً من الأحداث والكوارث الطبيعيّة التي تسبّب ترك ديارهم، باحثين عن مكانٍ آمنٍ لهم ولأطفالهم تتوفّرُ فيه مقوّمات الحياة. فقَدَ بعضُ النّاس أحبّتَهم جرّاءَ ذلك السّفر وازداد الموتُ بينَهم جوعاً وعطشاً وتراكمت الجثثُ وحملت الرّياحُ معها الهواءَ الفاسدَ النّاتجَ عن انتفاخ بعض الجثُث، ما سبّب انتشار الأمراض المختلفة بينَهم. أمّا الكارثة الأخرى التي شهدها العبادُ فهي موجة الطّاعون التي قال فيها ابن الوردي كلاماً مؤثّراً مثل وصف حاله للنّاس وهم يتوقّعون الموت بين فينة وأخرى.

الله أكـــبر مـــن وبـــا وقـــد ســـبا ويصـــولُ فـــي العقـــلاءِ كـــالمجنونِ

ســـنّت أســـنته لكـــلّ مدينـــةٍ فعجبـــت للمكـــروهِ في المســـنونِ

(*المصدر نفسه*: ٩٠)

إذا ابتعدنا عن التورية في كلمة "مسنون" التي تعني الحاد بعد السّنّ وتعني ما أمرت به السُّنّة الشّريفة نجد وصفاً طريفاً للطاعون الذي عمَّ البلاد كلّها وأعمل فيها القتل وصالَ عليها كالمجنون الذي لا يفرّقُ بين الصّالح والطّالح.

يصوّرُ ابنُ الوردي أثرَ الطاعون سنة ٧٤٩هـ على مدينة دمشق ويدعو لها بالصّلاح في صورةٍ مؤخّرةٍ:

أصـــلحَ اللهُ دمشــقاً وحماهـــا عـــن مسَـــبّهْ
نفسُـــها خسّـــت إلـــى أن تقتـــلَ النّـــاسَ بحبّـــهْ

(*المصدر نفسه*: ٨٨)

يستخدمُ ابن الوردي السّجعَ المطرف في هاتين الجملتين اللّتين تصفان حكم الله الذي قضى بأن تصبح دمشق التي هي رمزٌ للجمال والخصبة، رمزاً للموت وكأنّ عليها نفحةً من النّار جرّاء هذا الطاعون.

يُظهر ابن الوردي كيف وصل طاعون عام ٧٤٩هـ إلى مدينة حلب وغلب على مظاهر الحياة فيها:

إنّ الوبـــا قـــد غلبـــا وقـــد بـــدا فـــى حلبـــا
قـــالوا لـــه: علـــى الـــورى كـــافٌ وراء قلـــتُ: وبـــا

(*ابن الوردي*، ١٣٠٠: ٩٠)

يظهر في هذين البيتين الجناس التامّ في كلمتي (الوبا) و(وبا)، فهي في البيت الاوّل تعني الوباء أي المرض وفي البيت الثاني تأتي بمعنى حرف (البا)، إذ قام الشّاعرُ بتبيين معنى الوباء بذكر حروفه مقطّعةً لتجتمع في كلمة (كرب) وهي المصيبة.

يصوّرُ ابنُ الوردي في الأبيات التالية صورةً حزينةً تعبّرُ عن مأساةٍ اجتماعيةٍ وفاجعةٍ إنسانيّةٍ كبيرةٍ إذ إنَّ الوباءَ يأخذُ النّاسَ بالجملة وكأنّهُ مكلّفٌ بذلک:

يـــدخل إلـــى الـــدّارِ ويَحلـــفْ مـــا يخـــرج إلّا بأهلِهـــا
معـــي كتـــابُ القاضِـــي كـــلّ مَـــن في الـــدّارِ

(*المصدر نفسه*: ٩٣)

انتشرت مظاهرُ سلبيّةٌ أخرى في أثناء الكوارث الطّبيعية، منها شماتةُ النّاس بعضُهم ببعض بعد الطّواعين التي عصفت بالمجتمع الإسلامي في العصر المملوكي وما خَلّفته من مآسٍ إنسانيّةٍ. تعرّضَ ابنُ الوردي هذا المجتمعَ للشماتةِ من أعدائه ومن ذلک ما عكسَهُ في طاعون سنة ٧٤٩هـ:

ســكّانُ ســيسَ يَســرُّهم مــا ســاءَنا وكـــذا العوائـــدُ مـــن عـــدوّ الـــدّينِ
اللهُ ينقلـــهُ إلـــيهم عـــاجلاً ليمـــزّقَ الطـــاغونَ بالطـــاعونِ

(*المصدر نفسه*: ٩٤)

يصوّرُ الشّاعرُ حالةَ الفرح التي اعترت سكّان هذه البلاد لِما حلَّ في البلاد الإسلاميّة من وباءٍ عاصفٍ وهو يستبشرُ بوصول الوباء إليهم ليردَّ اللهُ كيدَهم. ينعكسُ ابنُ الوردي في الموضع ذاتِه حالةَ الغضب التي اعترت المسلمين جرّاءَ هذه الشماتة، قائلاً: «وممّا أغضبَ الإسلامَ وأوجبَ الآلامَ، أنَّ أهلَ سيس الملاعين، مسرورونَ لبلادنا بالطّواعين حتّى كأنّهم منهُ في أمانٍ أو كأنّهم إذاً ظفروا وربّنا لا تجعلنا فتنةً للّذينَ كفروا». جديرٌ بالذّكر أنّه رصدَ بعضُ الشّعراء الذين أنتجوا أدباً للكوارث الطّبيعية في العصر المملوكي، نتائجَ إيجابيةً على المجتمع رغمَ الدّمار الشّامل الذي خلّفته هذه الكوارثُ. من المظاهر الإيجابية التي سطرها الأدباءُ هو احتسابُ الموتى في الأحداث والكوارث الطبيعية شهداءَ وفي ذلک ينظّم ابنُ الوردي في قتلى زلزالٍ:

وليسَت وفاتُهم بالرّدم نقصاً لِقدرهم فَفي الشّهداءِ صاروا
وما ليسَ في سطوةِ الخلّاقِ عيبٌ ولا في ذلّةِ المخلوقِ عارُ

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ١٥٣)

يرفعُ ابنُ الوردي من منزلة الذينَ قضوا نحبَهم في الزّلزلة التي جاءت على حين غرّةٍ، فلم يتمكّن بعضُ النّاس الهروبَ من دمارها. تغيّرت الكوارثُ الطبيعيةُ حالَ بعض النّاس، فلم تبقَ الدّنيا شُغلهم الشّاغل، ذلک أنَّ الكارثة أشعرتهم بدنوّ آجالهم، ما جعلهم يُحضّرون أنفسَهم للقاء الله، فيُقبلون على ما شرعَ اللهُ من الوصاية بالخير والإنفاق في سبيل الله والإقلاع عن المعاصي والتقرّب لله سبحانه وتعالى بالأعمال الحسنة. قد أجملَ ابنُ الوردي هذه النتيجةَ في أبياته التي قالها في أثناء طاعون ٧٤٩هـ على الرّغم من كلّ المآسي التي خلّفتها:

فهذا يُوصّي أولادُهُ وهذا يودّعُ إخوانَهُ
وهذا يُهيّئُ أشغالَهُ وهذا يُجهّزُ أكفانَهُ
وهذا يُوسّعُ إنفاقَهُ وهذا يخالُ مَن خانَهُ
وهذا يغيّرُ أخلاقَهُ وهذا يُعيّرُ ميزانَهُ

(*المصدر نفسه*: ٩٤)

التوسّلُ إلى الرّسول الأكرم والمديح النّبوي من الآثار الإيجابيّة الأخرى في أثناء حدوث الكوارث الطّبيعيّة لكي يرفعَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى المحنَ التي أصابت النّاسَ وممّا نظمهُ الشّعراءُ في هذا الشأن ما قالَهُ ابنُ الوردي في طاعون ٧٤٩ هـ إذ قال:

يـــا ربّ بالهـــادي النّـــبي المجتبـــى أغمِـد عـــن الإســـلامِ أســـيافَ الوبـا
يـــا ربّ لا يُشـــكَى أليـــمُ عذابِـــه إلّا إليـــكَ فقـــد أحـــافَ وأرعبـــا
كَـــم حـــلَّ في بلـــدٍ فَشـــتّت شمـــلَ مَـــن فيهـــا فـــلا يَجـــدونَ منـــهُ مَهربـا

(*المصدر نفسه*: ٣٧٢)

في هذه الأبيات يُناجي الشّاعرُ ربّهُ بمكانة الرّسول الكريم عندهُ ويَستعطفه بأن يخلّصَ النّاسَ من الطّاعون الّذي ألمّ بهم فهم لايجدونَ ملجأً غيرَهُ يبثّون لهُ ما أصابهم من همٍّ ومرضٍ أرهقتهم ونشرَ الموتَ بينَهم وفرّقَهم. يَتشفّعُ الشّعراءُ إلى الله تعالى بالرّسول الأكرم (ص) مُقرنينَ شكواهم بالصّلاة عليه وعلى آله وصَحبه، يقولُ ابنُ الوردي في شكوى النّاس أثناء الطّاعون:

إنّـــا تشـــفّعنا إليـــكَ بأحمـــدَ أعلـــى الـــورى قـــدراً وأرفـــعَ مَنصـــبا
أن ترفـــعَ عنّـــا الطّـــاعونَ عـــاجلاً وتُجيرَنـــا مِـــن شـــرّه وتُجَنّبـــا
ثمَّ الصّـــلاةَ علـــى النّـــبي وآلـــه وصـــحابِهِ والغـــرِّ مـــن أهـــلِ العبـا

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ٣٧٢)

يتّضحُ ممّا سبقت أنَّ الكوارثَ الطبيعيةَ على الرّغم ممّا حملت من مآسٍ وويلاتٍ؛ إلّا أنّها حملت نتائج إيجابية، أكثر ما تجلّت في التقرّب من الله سبحانه وتعالى وهو الرّحمن الرّحيم وقد تضمّنَ تقرّبُهم إليه تلمسُ الوسيلة من النّبي محمّد(ص) فهو أحبُّ الخلق للخالق وتضمّنت مدحاً لهُ ولصفاته العليا التي أهّلتهُ للمنزلة العالية الّتي ستساعدُهم في اجتياز محنتهم التي آمنوا بها قدراً واقعاً عليهم من الله سبحانه وتعالى فقبلوها وصبروا عليها.

٢. المظالم

كان المماليكُ يمثلّون شخصيّتينِ، الأولى الّذين دافعوا عن الإسلام وأهله وأخرجوا أعداءَ الإسلام من بلادهم كَملك الظاهر بيبرس، رابع سلاطين المماليك وهو الّذي أمرَ بمنع تعاطي المسكرات وإحراق دور اللّهو. «كان الظاهر بيبرس لا يحبُّ التعسّفَ والظلمَ، فقد كان يقومُ بمساعدة الفقراء ونُودي للفقراء، فاجتمعوا تحتَ القلعة، فَنزل الحجّابُ إليهم وكتبوا أسماءَهم وبلغت ألوفاً فقال السّلطانُ: واللهِ لو كانت عندي غلّةٌ تكفي هذا العالم لفرّقتها». (المقريزي، ١٩٧٠:٥٠٧) أو يقول ابنُ اياس حولَ السّلطان "أبو النصر قانصوه الغوري" عندما سافرَ من مصرَ قاصداً حلبَ:

قالـــت دمشـــقُ فرحـــةً لمـــا أتـــى أهـــلاً بمَـــن بـــينَ الرّعايـــةِ مُنصـــفي
وحمـــاةٌ أحماهـــا بصـــايحِ عدلـــهِ فأطاعـــهُ العاصـــي بغـــيرِ توقُّـــفِ

(ابن اياس، ١٩٨٢، ج٥: ١٦٢)

أمّا الشّخصيةُ الثانيةُ لحكّام المماليک فأولئک الذينَ ظلموا الشّعبَ واستبدّوا بهم حتّى اشتکى النّاسُ منهم کثيراً. کانت للمظالم والمفاسد آثارٌ سلبيةٌ على حلبَ وأهلها وجميع النواحي الإدارية والعمرانيّة والاقتصاديّة والعسکريّة والفکريّة والأدبيّة، الأمرُ الذي جعلَهم يرجون زوالَ المماليک وينتقمون من فلول الجيش المملوکي الهارب بعد انکساره في معرکة "مرج دابق" فوثبوا قاطبةً على هذه الفلول وقتلوا جماعةً منها ونهبوا سلاحها وخيولها. لقد جرى على المماليک من أهل حلبَ ما لم يجرِ عليهم من عسکر العثمانيين انتقاماً لما أنزلوه على حلبَ من ظلمٍ وجورٍ. (الطباخ، ١٣٤٢،ج٣: ١٦٧)

ومن مظاهر الظّلم، نظامُ السّخرة الذي کان الناسُ فيه يُساقون للعملِ سوقاً من غير رحمةٍ أو أجرٍ أو اختيارٍ ولذلک کرهَ ابنُ الوردي أن يتوضّأ من قناة ماءٍ قد حُفرت بواسطة نظام السّخرة وحذّر من حساب الله الشّديد يومَ القيامة:

کرهـــتُ وضـــوءَ مـــن قنـــاةٍ تُســـاقُ مـــن دمـــاءِ الرّعايـــا أو بســـخرةِ مُســـلمِ
ستشـــرقُ في يـــوم الحســـابِ ندامـــةٌ کمـــا شَـــرقت صـــدرُ القنـــاةِ مـــنَ الـــدّمِ

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ٢٤١)

ومن قبائح ديوان الجيش الزام الفلّاحينَ في الإقطاعات بالفلاحة والفلاحُ حرٌّ وأميرُ نفسِه وأمّا محاصيلُ الأرض فلا يصلُ منها إلى الفلّاح إلاّ القليلُ جدّاً. أصبح لفظُ (فلّاح) في العصر المملوکي مرادفاً للشّخص الضّعيف المغلوب على أمره وزاد من حالهم سوءاً المظالم التي حلّت بهم من الولاة والحکّام کما يشير إليه ابن الوردي وهو يقتبس من الآية القرآنية: «قالَ مَا مکَّنِّي فيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا» (الکهف: ٩٥) ليُضفي معناه قوّةً وجمالاً وقدرةً:

ربَّ فـــــــلّاحٍ ملـــــــيحٍ قـــــال: يـــا أهـــلَ الفتـــوّهْ
کفلـــــي أضـــــعفَ خصـــــري "فـــــأعينوني بقـــــوّهْ"

(*المصدر نفسه*: ٤١٤)

اشتكى النّاسُ من ظلم الأمراء المماليک وموظّفي الدّولة كثيراً. منها تغييرُ نوّاب حلبَ؛ لأنّه كان يتركُ آثاراً سلبيةً على المدينة وسكّانها. على النّاس استقبالُ كلّ نائبٍ جديدٍ بأبهى حلّةٍ وأن يزيّنوا الأسواقَ والشوارعَ ترحيباً بقدومه ولا شكّ في أنّهم يجدون متعةً في ذلک، بَيد أنّ هذا كَثُرَ عليهم وثَقُلَ. صَوّر ابنُ الوردي ذلک تصويراً ساخراً:

كـــم ملـــكٍ جـــاءَ وَكَـــم نائـــبٍ — يـــا زينـــةَ الأســـواقِ حتّـــى مَتـــى؟
قـــد كـــرّروا الزّينـــةَ حتّـــى اللّحـــى — مـــا بقيـــت تلحـــقُ أن تَنبتـــا

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ٤٨٥)

وأمّا أسبابُ ذلک العزل والتغيير فالرّشوةُ، إذ أصبحت النياباتُ لمن يدفعُ أكثرَ أملاً في أن يكون حصادُه أوفى وأجزل، إلاّ أنّه سرعانَ ما يبتلي بمن يدفعُ لأولی الأمر أكثر منه فيعزلُ قبل أن يحقّقَ آمالَه، الأمر الذي دفعَ ابنَ الوردي أن ينكرَ على أركان الدّولة في مصر ذلک بأسلوبٍ لاذعٍ، فقال:

ســـاكنَي مصـــرَ أيـــنَ ذاک التّـــأني — والتـــأبّي ومـــالكُم عنـــهُ عـــذرُ
يخســـرُ الشّـــخصُ مالَـــه ويقاسِـــي — تعـــبَ الـــدهرِ والولايـــةُ شـــهرُ

(المصدر نفسه: ٤٩١)

ولقد أدّى هذا السّوءُ إلى وصول بعض الأمراء المماليک السّيئين إلى نيابة حلبَ أو غيرها من الوظائف الهامّة، فذاقَ النّاسُ منهم كثيراً من النّصَب والظّلم على الرّغم من نفاق هؤلاء الأمراء وتظاهرهم بالتّقوى والصّلاح. يقولُ ابنُ الوردي في مكانٍ آخرَ وهو يعبّرُ ضميرَ الأمّة ومصالحها عن عزل "فخرالدين أياز" نائب حلب عام ٧٤٨ هـ:

هـــذه أمـــورٌ عظـــامُ — مـــن بعضِـــها القلـــبُ ذائـــبْ
مـــا حـــالُ قطـــرٍ يليـــهِ — في كـــلّ شـــهرين نائـــبْ

(المصدر نفسه: ٤٨٢)

شبّهَ ابنُ الوردي أحدَ الأمراء بالجزّار الذي يجمعُ بين الذّبح والذّكر لأنّه يظلمُ النّاسَ ويتظاهرُ بالتّقوى والصّلاح:

قـــد عَجبنـــا للأمـــيرِ — ظلـــمَ النّـــاسَ وســـبَّحْ
فَهْـــوَ كـــالجزّارِ فـــيهم — يـــذكرُ اللهَ ويَـــذبَحْ

(*المصدر نفسه*: ٣٥٣)

ومن المساوئ التي اشتكى منها أهلُ حلبَ أيضاً سيطرةُ الأغراب على مصالحها المختلفة بينما أبعدَ أبناؤها عن أماكن المسؤولية وهم جديرونَ بها، قال عمرُبن أحمد الشهير بخليفة بن الزّكي:

تكلّمَ بالشّهباء مَن كان أبكما لمالٍ وجاهٍ لا لعلمٍ ولا أدبْ
ومن أعجبِ الأعجابِ أنَّ غريبَها يُقدَّم على أبنائِها من ذوي الحسبْ

(الغزي، ١٩٤٩،ج٢: ٢٢٦)

وعظُمت هذه المساوئُ وأمثالها حتّى تولّى الفزع قضاء حلبَ، فصوّر ذلک ابنُ الوردي بسخريّةٍ سوداءَ، وهو يتحسّرُ على حلب الشّهباء والألم يعصرُ فؤادَه:

ويلي على الشّهباء ويلُ الشَّهباء قد أصبَحت بينَ الوحوشِ نهبا
قرداً وذئباً زُوّجت وكلباً ما بقيت تعوزُ إلاّ الدبّا

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ٤١٩)

ولا شکَّ أنّه يقصدُ بالقرد والذئب والكلب، بعضَ الموظّفين الكبار الذين تمثّلت فيهم أسوأ ما في هذه الحيوانات من صفاتٍ. من الطّبيعي أن يَسري السّوءُ إلى موظّفي الدولة وينشرَ بينهم فالمحتسبُ مثلاً ينبغي أن يمنعَ ارتفاعَ أسعار السّلع بسبب الغشّ أو الاحتكار أو غير ذلک. تحدّثَ ابنُ الوردي عن المحتسب الذي قامَ بنقيض خفضِ الأسعار وساعدَ على رفع الأسعار:

تَولّى النّاسَ مُحتسبٌ غليظٌ فقامت للغلا في السُّوقِ سوقُ
ولو عزلوهُ جاءَ الرخصُ يسعَى إذا عُزلَ الغَليظُ أتى الدقيقُ

(*المصدر نفسه*: ٣٥٩)

يلتجأ الناسُ أمامَ الظّلم إلى الدّعاء والشّكوى كما استجابَ اللهُ دعاءَ الناس، فقُبِضَ على الأمير "بدر الدين لؤلؤ القندشي"، ضامن حلب وجُلد بالسّياط حتّى ماتَ فارتاحَ النّاسُ منه:

ألؤلؤٌ قد ظلمتَ النّاسَ لكنْ بقدرِ طلوعکَ اتّفقَ النزولُ
كبرتَ فكنتَ في تاجٍ فلمّا صغرتَ سُحقتَ سنةَ كلَّ لؤلؤ

(*المصدر نفسه*: ٣٥٤)

تعدّى ظلمُ الأمراء إلى الحيوانات أيضاً حتّى صار نوعاً من الحمق، مثلما فعلَ أمير سيف الدين نائبُ حلبَ "أرغون شاه" مع فرسٍ أصيلةٍ له غضبَ عليها فضربها حتّى سقطت وعجزت عن القيام والناسُ ينظرون لا يملكونَ أن يتفوّهوا أمامَه بكلمةٍ ولا يجدون أمامَهم إلاّ البكاءَ شفقةً وألماً:

عقلـــــتَ طرفَـــــك حتّـــــى أظهـــــرتَ للنّـــــاسِ عقلَـــــكْ
لا كـــــانَ دهـــــرٌ يـــــولّي علـــــى بـــــني النّـــــاسِ مثلَـــــكْ

(*المصدر نفسه*: ٤٩٢)

نجدُ في أشعار ابن الوردي نوعينِ من النّصح يتعلّقُ بالحياةِ الاجتماعيةِ. ينصحُ ابنُ الوردي في النّوع الأوّل بالابتعادِ عن الملوك؛ مَهما رأى الإنسانُ منهم تكريماً وحبّاً:

أوصـــيكَ فـــإن قبلـــتَ مـــنّي أفلحـــتَ ونِلـــتَ مـــا تحـــبُّ
لا تـــدنُ مـــنَ الملـــوكِ يومـــاً فالبعـــدُ مـــن الملـــوكِ قُـــربُ

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ٤٨٤)

وفي النّوع الثاني، ينصحُ الشّاعرُ الذين يشكون من ظلم المماليک بالسّكوت والهدوء ويُذكّرهم ظلمَ الحجّاج ووازنَ بين سياستَه وسياستَهم:

يـــا شـــاكياً مـــن دولـــةِ الـــترک مَـــه وأثبـــت ثبـــوتَ الجبـــلِ الرّاسِـــي
مـــا تفعـــلُ الـــتّركُ كمعشـــارِ مـــا قـــد فعـــلَ الحجّـــاجُ بالنّـــاسِ

(*المصدر نفسه*: ٢٣٥)

لذلک كان الناسُ يجدون في موت هؤلاء الظالمين انتقاماً وجزاءً وفاقاً لسوءِ أعمالهم ومُتنفّساً لهم يستطيعونَ فيه أن يعبّروا عمّا يغتلي في ضمائرهم من انفعالات مكبوتة لا يستطيعون البوحَ بها والتعبيرَ عنها، فقال ابنُ الوردي شامتاً بموت (طقتمر الخازن) نائب قلعة حلبَ الذي كان مطعوناً في دينه أقامَ في بيته التماثيلَ والصّورَ:

مـــا حـــلَّ فيهـــا زحـــلٌ إلاّ لـــنَحسِ المشـــتري
فانعـــدمت صـــورتُهُ مـــن شـــؤمِ تلـــک الصُّـــورِ

(*المصدر نفسه*: ٤٩٢)

كما وجدَ الناسُ راحةً وسعادةً في موت الأمير سيف الدين(بهادر) المعروف "بحلاوةٍ" قبلَ أن يتمكّنَ من تحقيق وعيده لأهل حلبَ، فقالَ ابنُ الوردي:

حـــلاوةٌ مـــرَّ فمـــا أملحَـــه أن يُـــدفنا
إلـــى البلـــى مُســـيّرا وفي الثَّـــرى مُكفَّنـــا

(*المصدر نفسه*: ٤٧٨)

إنَّ قضيّة صِغَر الحاكم وهو دون سنّ الرّشد من العوامل التي كانت تسبّبُ الظلمَ والجورَ من قِبل

النوّاب والأمراء في المجتمع المملوكي. فكيفَ يستطيع مَن مسّتهُ مظلمةٌ أن يشكو أمره وأن يبلغ سؤله وسلطانُه لم يبلغ بعدُ؟ أومأ ابن الوردي بمرحلة من مراحل العمر وهي مرحلة البلوغ وقال ساخراً عندما صار الملك الأشرف كجک سلطاناً وهو صغيرٌ:

سلطانُنا اليومَ طفلٌ والأكابرُ في خَلفٍ وبينَهم الشّيطانُ قد نَزغا
فكيف يطمعُ مَنْ مسّتهُ مَظلمةٌ أن يبلغَ السؤلَ والسّلطانُ ما بَلغا

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ٢٢٢)

لا يسخر الشاعرُ من قضيّة صغر الحاكم فقط؛ بل تتعدّى سخريّته إلى الوضع الذي آلت إليه الأمور والوضع كالآتي: السّلطانُ طفلٌ وهناک مَن يتسابقُ على الحكم عوضاً عنه والشّيطان نازغٌ بينَهم.

٣.المفاسد

الف) الخمر والحشيش

إلى جانب تيّار التصوّف والزّهد نجدُ تيّارَ المجون والخمر وقد شربَ أتباعُه الخمرَ الّذي كانَ أهلُ الذمّة يصنعونه ويخزنونه في أقبية كنائسهم وأديرتهم وقد شجّعَ على ذلک إقبالُ بعض المسؤولين عليها مثل الأمير "أزدمر بن مزيد" نائب حلبَ عام ٨٨٤هـ، بيدَ أنّ الخمرَ كانت غاليةَ الثّمن لا يستطيعُ شربَها إلّا الأغنياءُ، الأمر الذي جعلَ الفقراءُ يفضّلون الحشيشَ عليها. لم تستطع شدّةُ الملک الظاهر بيبرس، الذي أصدر أمراً في كلّ الأقاليم بهدم المواخير وإغلاق الحانات وإهراق الخمور وحرق الحشيش حتّى أنّه قد صَلبَ مؤرّخَ كتاب "مختصر التّاريخ"، ظهير الدين علي بن محمد بغدادي، الملقّب بابن الكازروني وهو سكرانُ بعدَ أن علّقَ الجرّة والقدح في عنقه (ابن إياس، ج ١، ١٩٨٢: ١٠٥). لم تستطع شدّةُ الملک الظاهر بيبرس ولا غيره من السّلاطين أن تحول دون انتشار الحشيش وذلک لعدم وجود نصٍّ شرعي صحيح على تحريمه ولتبنيه من قِبل بعض المتصوّفة حتى إنّ بعضَ عدول حلب قد تعاطاه مثل أحمد بن موسى خطيب المدرسة السّلطانية الذي قتل وبلع، ثمَّ قامَ ليصلّي بالنّاس فسجدَ فلم يرفَع رأسَه إلى أن فارقوه وأتمّوا صلاتهم، ثمّ أيقظوه ممّا كان فيه إيقاظاً (إبن الحنبلي،١٩٧٤،ج١: ١٤٥). وصفَ ابنُ الوردي رقّةَ الخمر وهو يستمدُّ المعاني من الشّعراء السّابقين:

*مدامـــــــــــــــةٌ رقّـــــــــــــــت		فقـــــــــــــــالَ جلاســــــــــــــي*
*أكأسُـــــــــــــــــها فيهـــــــــــــــا		أم هـــــــــــــي في الكـــــــــــــأسِ*

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ٢٧٩)

وصفَ ابنُ الوردي أيضاً أدوات الخمر؛ فهو يفضّلُ أن تكونَ كأسُ الخمر خاليةً من الرّسوم والنّقوش حتّى يماثلَ صفاؤُها صفاءَ الخمر التي تكتسبُها لونها الذّهبي عندما تصبُّ فيها:

*دَع الكـــــــأسَ مِـــــــن نقشِـــــــها		فصـــــــافٍ بصـــــــافٍ أحـــــــبْ*
*إذا ذُهِبَـــــــــــــت بـــــــــــــالطِّلا		فقـــــــد طُليـــــــت بالـــــــذّهبْ*

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ٤٣)

ب) الرّشوة

سلّطَ الشّعراءُ أضواءَ نقدهم نحوَ مظاهر السّوء في المجتمع مثل الرّشوة الّتي تطوّرت إلى أتاوةٍ دوريّةٍ ضروريةٍ لاستمرار الإنسان في وظيفته وإلاّ عزلَ منها. تحدّثَ ابنُ الوردي عن أحد هؤلاء المعزولين لهذا السّبب، وربطَ ذلک بعلم النّحو ربطاً طريفاً:

*عزلـــــوک لمـــــا قلـــــتَ مـــــا		أُعطـــــي وولّـــــوا مَـــــن بَـــــذلْ*
*أوَ مـــــا علمـــــتَ بـــــأنَّ (مـــــا)		حـــــرفٌ يكـــــفُّ عـــــن العمـــــلْ*

(*المصدر نفسه*: ٤٣١)

يخاطبُ ابنُ الوردي أحدَ القضاة الّذين وصلوا إلى منصبهم بالرّشوة وقارنَه بنفسه قائلاً:

*نحـــــــن قـــــــومٌ مـــــــا ولّينـــــــا		بالرّشـــــــا مثـــــــلَ فعالِـــــــكْ*
*بـــــــل بعلـــــــمٍ واجتهـــــــادٍ		ومـــــــا أشـــــــبهَ ذلـــــــكْ*

(*المصدر نفسه*: ٢٨٧)

وبسبب الرّشوة وصلَ إلى منصب القضاء أناسٌ يتّسمون بالجهل والظّلم ولقد رسَمَ ابنُ الوردي صورةً لواحدٍ من هؤلاء، اسمهُ "أحمد بن ياسين الرّياحي" القاضي المالكي وكانت صورةً مفصّلةً شاملةً قامت على مقطوعاتٍ تجاوزت الثلاثَ عشرةَ وضَّحت جهلَه وظلمَه وقبولَه الرّشوةَ وقلّةَ دينه ولقد أدّى هذا إلى انتشار الفساد في حلبَ انتشاراً عظيماً ذاعَ صيتهُ في البلاد؛ ففرحَ به النّصارى واليهودُ والأرمنُ. لم يكتفِ بهجائه في صفاته المعنوية فقط وإنّما هجاه بلَثغةٍ كانت فيه ولم يجد الحلبيّون أخيراً إلاّ أن يستغيثوا بالمسؤولين في عاصمة السّلطنة استغاثةَ الملهوف ويذكرونهم

باللّه:

اللّهَ اللّهَ لا تبقـــــوهُ في حلـــــبَ يـــا أهــلَ مصــرَ وفينـــا راقبـــوا اللّهَ
دأبـــاً يـــذمُّ فنـــونَ العلـــمِ محتقـــراً لهـــا ومَـــن جهــلَ الأشـــياءَ عاداهـــا

(المصدر نفسه: ۱۶۰)

ثمّ أُستُجيبَ لهم وعزل في يومٍ دقّت فيه البشائرُ بحلبَ وزُيِّنت الأسواقُ لانتصار جيشها في مدينة سنجارَ، فقالَ ابنُ الوردي فرحاً:

ســــألتُ عـــن بشـــائر تُضـــربُ في المســـالكِ
فقيـــلَ لي مـــا ضُـــرِبَت إلّا بعـــزلِ المـــالكي

(ابن الوردي،۱۳۰۰: ۱۹۶)

لعلّ هذا الإلحاحَ في هجاء القُضاة بهذا الشّكل دليلٌ على ما كان في قلوب النّاس من مشاعر الكُره والألم تجاهَه. ولا شكَّ أنّ هناک کثیراً ممّن يشبّهون المالكي هذا بين القُضاة، الأمر الذي جعلَ ابن الوردي يعزفُ عن القضاة جميعاً، دونما استثناءٍ في قوله:

لا تقصـــدِ القاضـــي إذا أدبَـــرتْ دنيـــاک وَاقصـــدْ مـــن جـــوادٍ كـــريمْ
كيـف تُرجّـي الـرّزقَ مِـن عنـد مَـن يُفـتي بـأنَّ الفلـسَ مـالٌ عظـيمْ

(المصدر نفسه: ۲۵۹)

لم تسلم من هذا السّوء الوظائف الدّينية، فالقضاءُ الّذي تفترضُ النزاهةَ فيه وإليه، صارت الرّشوةُ الطريقَ المؤديةَ إليه مثلما قال ابنُ الوردي:

مُريـــد قَضـــا بلـــدةٍ لـــهُ حلـــبٌ قاعـــدهْ
فَيطلـــــعُ في ألفِـــــه وينـــــزلُ في واحـــــدهْ

(المصدر نفسه: ۵۰۱)

ج) اللّواط

مـن الطّبيعي أن يتسرّبَ السّوءُ والفسـادُ إلـى أوسـاط الشّعب وينعكسَ في تصرّفاتهم ويبـدو في أخلاقهـم، فسَرت بهم المخازي والمساوئ مثلُ اللّواط الـذي فتنَ فيه أصحابُ النُّهي. جعلَ ابنُ الوردي يستنكرُ اللّواطَ؛ لانّه قد صار مُستهتراً منتشراً في المجتمع:

يـا قـومُ صـار اللّـواطُ اليـومَ منتشـراً وشـائعاً ذائعـاً مـن غـير إنكـارِ

(*المصدر نفسه*: ٢٥٦)

حذّرَ ابنُ الوردي من اللّواط تحذيراً شديداً وذمّه ونصحَ بالابتعاد عن مصاحبة أصحابه وشكا من شيوعه. إنّه ذنبٌ عظيمٌ هلكت به أممٌ سابقةٌ كثيرةٌ، فَعرشُ الرّحمن يهتزُّ من قُبحه والجنّاتُ تغلقُ أبوابَه أمامَ فاعليه:

مَن قال بالمردِ فاحذر أن تُصاحبهُ فإن فعلتَ فَثِق بالعارِ والنّارِ
ذنبٌ به هَلكت من قَبلنا أممٌ والعرشُ يهتزُّ هزَّ إكبارِ
جناتُ عدنٍ عن اللّوطي قد حُرمَت اللهُ اكبرُ ما أعصاه للباري

(*المصدر نفسه*: ٢٥٦)

٤. التقاليد والعادات

للعادات والتّقاليد الموروثة أثرٌ كبيرٌ في حياة الفرد والجماعة؛ فهي تحكمُ كلّاً منهما وتوجّهه في حياته الخاصّة والعامّة وتطبعُ شخصيتَه بطابعٍ مميّزٍ، إلى حدٍّ يمكنُ القولُ معه: إنّ الإنسانَ ليس إلاّ قدراً من العادات والتقاليد التي تتجلّى آثارُها في أفراحه وأحزانه وفي حبّه وفي كرهه وفي سائر علاقاتِه بما حولَه وبمن حوله. اغتنمَ الشّعراءُ المناسبات الجميلة فاتّخذوها ذريعةً للتّعبير عن عواطفهم وصداقتهم لأصدقائهم وهنّأوهم بها أجملَ تهنئةٍ وفي هذا دليلٌ على وجود حياةٍ اجتماعيةٍ راقيةٍ لها تقاليدُها ومظاهرُها ومن هذه المناسبات أداءُ فريضة الحجّ. فقد هنّأ ابنُ الوردي صديقاً له بذلك تهنئةً رقيقةً، مدحَه فيها بالعلم والفضل والأدب:

يا عالماً عاملاً قد جلَّ تشبيهاً عن البدورِ وفي العلياءِ يحكيها
وفاضلاً فاضلاً تَحوي بدايتُه من النّهايةِ تهذيباً وتنبيهاً

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ١٥٢)

كان رأسُ السنة مناسبةً طيبةً هنّأ بها النّاس كما هنّأ ابنُ الوردي قاضي القضاة فى حلبَ، كمال الدين الزّملكاني:

هُنّيتَ عاماً مقبلاً مُقبلاً عليك بالسّعدِ وعيشٍ حَلا

(*المصدر نفسه*:٢٦٤)

والزّواجُ أيضاً مناسبةٌ تستحقُّ التهنئةَ، فقد أرسلَ ابنُ الوردي بيتينِ إلى صديقٍ قد تزوّجَ وقد سجّلَ

فيهما عادةَ إشعال الشّموع في مثل هذه المناسبات واستغلّ اسمه (الشّمس) في تورية لطيفة:

يـــا "شمـــسُ" أشـــعلتُ شمعـــا عليـــــكَ عشـــــرُ الأصـــــابعْ
رغمـــــاً لمـــــن قـــــالَ قبلـــــي الشّـــــمعُ في الشّـــــمسِ ضـــــائعْ

(*المصدر نفسه*: ١٩٧)

ومن هذه المناسبات، التّهادي مع اقتران الهديّة ببعض الأبيات الشّعرية. انتشرت هذه العادةُ بشكلٍ واضحٍ؛ حتّى إنّه لم يخلُ ديوانُ شاعرٍ في العصر المملوكي من مثلها. أرسلَ ابنُ الوردي نوعاً من الحلوى اسمهُ "قطائفُ" إلى صديقٍ:

بعثـــــــتُ قطائفـــــــاً روّى حشـــــاها قطرُهـــــا الغـــــامرْ
فســـــــــكرها أبـــــــــوذرٍّ ومُرســـــل صـــــحّتها جـــــابرْ

(*المصدر نفسه*: ١٩٤)

أو يهدي سجّادةً ويقولُ:

ســـــــــجّادةٌ أذكـــــــــرَتني منـــــك الّـــــذي كنـــــتُ أعلـــــمْ
أهـــــــــديتُها لمحـــــــــبّ صَـــــلّى عليهـــــا وسَـــــلّمْ

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ٢٢٥)

ومن العادات التي انعكست في أشعار ابن الوردي، تمزيقُ الثّياب على الميّت حزناً، فأفاد ابن الوردي منها في صورة جميلة مضمّناً أعجاز قصيدة المتنبّي:

كـــــأنّ الشّـــــقيقَ وألوانَـــــه "ثيـــابٌ شُـــققنَ علـــى ثاكـــلِ"
وثغـــرُ الأقـــاحي مستضـــحكٌ "لهـــم فـــيهم قســـمةُ العـــادلِ"

(*المصدر نفسه*: ٣٧١)

أمرَ المماليكُ أهلَ الذمّة ألا يتزيّوا بزيّ المسلمين حتّى يُعرفوا؛ فقد أصدرَ السّلطانُ النّاصر قلاوون سنة ٦٨٩هـ مرسوماً بتَصغير عمائمهم على أن تكونَ عمائمُ النّصارى زرقاً واليهود صفراً ويمنعهم من ركوب الخيل والبغال ومن قرع النواقيس ومن المشاركة فى المناسبات الكبيرة، فلقد منعَ أهل الذّمة والمطربون من مشاركة أهل حلبَ احتفالهم بجرّ مياه نهر الساجور إلى مدينتهم. (ابن كثير، ١٣٥٨،ج١٤: ١٥٢) كما كان بعضُ المسلمين ينظرون إليهم نظرةً خاصةً فيها شيءٌ من الكُره والاستعلاء. فقال ابنُ الوردي:

هـــذا اليهـــوديُ الطّبيـــبُ إذا رأى أمـــتي الضـــعيفةَ منـــهُ طبعـــي نـــافرُ
أأصـــوغُها مـــن أختهـــا شمـــسِ الضّـــحى ويـــرى محاســـنَها العـــدوُّ الكـــافرُ

(*المصدر نفسه*: ٤١٨)

لعلّ هذا التّضييقَ من المماليک على أهل الذمّة کان من أسبابه أنّهم قابلوا تسامح الأيوبيين بسوءٍ واتّفاقٍ مع أعدائهم، فلمّا احتلّ هولاکو حلبَ وأمعنَ فيها قتلاً وتخريباً لم يسلم فيها إلاّ مَن التجأ إلى ستّة أماکنَ أحدها کنيسُ اليهود (ابن الوردي، ١٩٥٠، ج٢: ٢٠٣).

والجدير بالذّکر أنّ هذا التّضييقَ کان نشازاً واستثناءً من القاعدة الّتي کانت تَعني التّسامحَ، ولم يکن دائماً مُستمراً وإنّما مرتبطٌ بحادثةٍ أو فردٍ معينٍ، وبعامّة فقد کان المماليکُ حکاماً والمسلمون شعباً يعاملون أهلَ الذمّة معاملةً طيبةً کريمةً ويحمونَهم ويدافعون عنهم. ولقد بلغَ تسامحُ المماليک مع أهل الذمّة حدّاً جعلَ بعضُ النّاس يثورُ عليه ويرفضهُ رفضاً باتاً. قال عبدُالله بن يوسف وهوکاتبُ الإنشاء في حلبَ:

أأرضـي حمـى الشّـهباء داراً وقـد عَلـت عليهـــا لأبنـــاءِ اليهـــودِ ســـناجقُ
فـــإن نکسَـــتْ أعلامُهـــم أنـــا راجـــعٌ إليهـــا وإلاّ فَهْـــي مـــنّي طـــالقُ

(الهيب، ١٩٨٦: ١٧٧)

وللمُتصوّفين عاداتٌ خاصّةٌ ومنها اتّخاذُ خاتمٍ من عقيقٍ والرّقصُ والغناءُ:

کـــانوا معـــاني المغـــاني حـــينَ يُنشـــدُهم شـــادٍ يجاوبـــهُ حُسْـــنٌ وإحســـانُ
مـــا أنـــتَ حـــينَ تُغـــنّي في منـــازلِهم إلاّ نســـيمُ الصَـــبا والقـــومُ أغصـــانُ

(ابن الوردي، ١٣٠٠: ٢٥)

ومنها کذلک أنّ المتصوّفين يُجلسون مَن يريدُ الانتسابَ إليهم على الرّباط مدّةً معينةً قبلَ أن يسمحوا له بالدّخول والانتساب لرباطهم؛ رياضةً له وتأکّداً من صحّة عزمه، ومنها أيضاً توجيهُ أباريقهم نحو القبلة وأن يضعَ السّاقي إبهامَ رجله اليُمنى على إبهام رجله اليُسرى ولقد وصفَه ابنُ الوردي ووصفَ کؤوسه وشرابه وإبريقه وأسرار ذلک فقال:

ســـاقٍ يســـوقُ إلـــى السّـــياقِ محبّـــةً ويـــرى شـــفاءَ حريقـــهِ برحيقـــهِ
الســـکرُ کـــلُّ السّـــکر في کأساتهِ والســـرُّ کـــلُّ الســـرِّ في إبريقـــهِ

(*المصدر نفسه*: ٢٦)

كان العصرُ المملوكيُ عصرَ تناقضاتٍ، اختلطت فيه العاداتُ الحسنةُ بالقبيحة وانعكس أثرُ ذلک على الشّعر الّذي صَوّر الحياةَ الاجتماعيةَ تصويراً وافياً.

النتيجه

لم يكن شاعرُنا ابن الوردي بعيداً عن المجتمع وما كان يحدثُ فيه من الأحداث والوقائع وإن لم ينعكس في أشعاره بعضَ المضامين الاجتماعية كمنزلة المرأة ومكانتها. فلهذا تعتبرُ أشعارُه مصدراً هامّاً للتَعرّف على المجتمع الحلبي في العصرِ المملوكي.

تمكّنَ ابنُ الوردي إلى حدٍكبيرٍ من نقل صورةٍ واضحةٍ للمفاسد والمظالم المختلفة في عصرِه التي كانت شديدةَ الضّرر بالنّاس فحرّک في كثير من الأحيان لإصلاحها أو للحدِّ من انتشارها.

اتّسمَ المجتمعُ المملوكي بشيوعَ الفقر بين أفراده ولكن لم يُخصّص ابنُ الوردي باباً له في ديوانِه بل تطرّقَ إليه أثناء المضامين الاجتماعية الأخرى كالظّلمِ والكوارث الطبيعية.

المعاني المستفادةُ في المضامين الاجتماعية فهي تقليديةٌ، بعيدةٌ عن الفحش والإقذاع عامّةً، وبَدت عليها آثارُ الثّقافة في بعض الأحيان ولمساتُ الصّنعة في كثيرٍ من الأحيان. ولقد عبّرَ عنها ابنُ الوردي بلغةٍ سهلةٍ خفيفةٍ؛ إلاّ أنّها بعيدةٌ عن الابتذال والسّوقية عامّةً وصاغَها في مقطّعاتٍ قصيرةٍ لطيفةٍ ليؤمنوا لها السيرورة والانتشار لتحقّق الغرض الّذي قيلت من أجله.

المصادر

ابن اياس، محمد (١٩٨٢م)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتّاب.

ابن الحنبلي، محمدبن ابراهيم (١٩٧٤م)، **درّ الحبب في تاريخ أعيان حلب**، دمشق: وزارة الثقافة.

ابن الرومي، علي بن العباس (١٩٧٧م)، **ديوان الشعر**، تحقيق: حسين نصار، القاهرة: دارالكتب.

ابن عماد، عبدالحي بن احمد (١٩٨٦م)، **شذرات الذهب**، بيروت: دارابن كثير.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر (١٣٥٨ه)، **البداية والنهاية**، القاهرة: مطبعة السعادة.

ابن الوردي، عمربن المظفر (١٩٥٠م)، **تتمة المختصرفي أخبار البشر**، تحقيق: أحمد رفعت، بيروت: دارالمعرفة.

ابن الوردي، عمربن المظفر (١٣٠٠ ه)، **ديوان الشعر**، القسطنطنية: مطبعة الجوائب.

الحموى، تقي الدين ابوبكرعلي (١٣٩٤هـ)، **خزانة الأدب وغايةالأرب**، القاهرة: المطبعة الأميرية.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (لاط)، **الطبقات الشافعية**، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الثانية.

سلام، محمد زغلول (لاط)، **تاريخ النقد العربي**، القاهرة: دارالمعارف.

سلطاني، محمدعلي (١٩٧م)، **النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري بين الصفدي ومعاصريه**، دمشق.

شيخاني، سمير (١٩٨٣م)، **موسوعة الضحک العالمية**، بيروت: مؤسسة عزالدين.

الطباخ، محمد راغب بن محمود (١٣٤٢هـ)، **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، حلب.

عاشور، سعيد عبدالفتاح (١٩٦٥م)، **العصر المماليكي في مصر والشام**، القاهرة: دار النهضة العربية.

الغزي، محمد بن محمد (١٩٤٩م)، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، لبنان: مطبعة المرسلين.

فروخ، عمر (١٩٨٤م)، **تاريخ الأدب العربي**، بيروت: دارالعلم للملايين.

القلقشندي، أحمدبن علي (١٩١٩م)، **صبح الأعشي في صناعة الإنشاء**، القاهرة: وزارةالثقافة.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (١٩٠٧م)، **المواعظ والعتبار بذكر الخطط والآثار**، القاهرة.

المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (١٩٧٠م)، **السلوک لمعرفة دول الملوک**، القاهرة: مطبعة الترجمة.

هويدى، صالح (١٩٩٨م)، **النقد الأدبي قضاياه ومناهجه**، ليبيا: منشورات جامعة السابع من أبريل،

الهيب، أحمد فوزي (١٩٨٦م)، **الحركة الشعرية زمن المماليک في حلب الشهباء**، بيروت: مطبعة الرسالة.

ابن وردی ودیدگاه او نسبت به جامعه مملوکی در شام

مجتبی کریمی[۱]، محمد خاقانی اصفهانی*[۲]، مهدی عابدی جزینی[۳]

۱. دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عربی دانشگاه اصفهان

۲. استاد گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه اصفهان

۳. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه اصفهان

چکیده

ابن وردی با وجود شاعران منتقد در دوره خود، پرچمدار شعر نقد اجتماعی در منطقه حلب به شمار می رود؛ زیرا وی با دقت بسیار توانست عیوب، مشکلات و نقص های رایج در جامعه خود را برای ما ترسیم نماید؛ هر چند عمیقاً از آنها تأثیر پذیرفته‌است. اشعار متعدد ابن وردی که بیانگر احساسات و بالابرندهٔ صدای نقد واصلاح اوست، از پیامدها و نتایج اهمیت اوضاع اجتماعی در دیدگاه ابن وردی است. نقد ابن وردی بر سلب فضیلت‌ها و رواج بدی‌ها و رذائل رو به عامه مردم دارد؛ هجای ابن وردی آن اندازه که به صفات بد و ناپسند افراد هجوشده روی آورده، به فطرت یا ماهیت آنان اهتمام نورزیده‌است؛ بررسی اشعار اجتماعی ابن وردی حاکی از این است که جامعهٔ عصر مملوکی در کمتر چیزی توازن و اعتدال داشته‌است. جامعه از یک طرف در منجلاب بی‌بندوباری و فساد فرو رفته بود و از طرف دیگر افراط در تصوف موجب انحراف از دین صحیح و درست شده بود. در این مقاله برخی از اشعار ابن وردی همچون شکایت از ظلم و بیداد حاکمان، بلاها و مصیبت‌های واردشده بر جامعه و پیامدهای آن را نقد و بررسی کرده‌ایم. این تحقیق به روش توصیفی ـ تحلیلی و با تکیه بر اشعار ابن وردی و تحلیل نقد مضامین اجتماعی آن به انجام رسیده‌است.

کلیدواژه‌ها: نقد اجتماعی؛ جامعه؛ ابن وردی؛ فساد.

*نویسندهٔ مسئول:

mohammadkhaqani@yahoo.com